

التسامح في الإسلام

نبيل نعمه الجابري/مركز الامام الشيرازي للدراسات والبحوث

عالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزلت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة.

تعريف التسامح:

جاء في اللسان في مادة (سَمَحَ) السَّمَاخُ والسَّمَاخَةُ: الجُودُ.

سَمَحَ سَمَاحَةً وَسُمُوحةً وَسَمَاحاً: جاد؛ ورجلٌ سَمَحٌ وامرأةٌ سَمَحةٌ من رجال ونساء سَمَاحٍ وَسُمَحاءٍ فيهما، حكى الأخيرة الفارسي عن أحمد بن يحيى. ورجلٌ سَمِيحٌ وَمِسْمَاحٌ وَمِسْمَاحٌ: سَمَحٌ؛ ورجالٌ مَسَامِيحٌ ونساء مَسَامِيحٌ؛

وفي الحديث: يقول الله عز وجل: أَسْمِحُوا لعبدي كإِسْمَاحِهِ إلى عبادي؛ الإِسْمَاحُ: لغة في السَّمَاخِ؛ يقال: سَمَحَ وَأَسْمَحَ إذا جاد وأعطى عن كَرَمٍ وَسَخَاءٍ؛ وقيل: إنما يقال في السَّخَاءِ سَمَحٌ، وأما أَسْمَحٌ فإنما يقال في المتابعة والانقياد؛ ويقال: أَسْمَحَتْ نَفْسُهُ إذا انقادت، والصحيح الأول؛ وَسَمَحَ لي فلان أي أعطاني؛ وَسَمَحَ لي بذلك يَسْمَحُ سَمَاحَةً. والمُسَامَحةُ: المُسَاهَلَةُ. وتَسَامَحُوا: تَسَاهَلُوا.

وفي الحديث المشهور: السَّمَاخُ رِيَاخٌ أي المُسَاهَلَةُ في الأشياء تُرْبِخُ صاحبها.

ويقال: أَسْمَحَتْ قَرِينَتُهُ إذا ذلَّ واستقام، وَسَمَحَتْ الناقةُ إذا انقادت فأُسْرَعَتْ، وَأَسْمَحَتْ قَرُونَتُهُ وسامحت كذلك أي ذلت نفسه وتابعت. ويقال: فلانٌ سَمِيحٌ لَمِيحٌ وَسَمَحٌ لَمَحٌ.

وتقول العرب: عليك بالحق فإن فيه لَمَسَماً أي مُتَسَعاً، كما قالوا: إن فيه لَمَنُوحَةً. (1)

والتسامح كما جاء في تعريفه إصطلاحاً : (هو كلمة دارجة تستخدم للإشارة إلى الممارسات الجماعية كانت أم الفردية تقضي بنبذ التطرف أو ملاحقة كل من يعتقد أو يتصرف بطريقة مخالفة قد لا يوافق عليها المرء. (2)

وأخيراً فالتسامح بالمعنى الحديث يدل على قبول اختلاف الآخرين - سواء في الدين أم العرق أم السياسة - أو عدم منع الآخرين من أن يكونوا آخرين أو إكراههم على التخلي عن آخريتهم(3).

التسامح في القرآن الكريم:

إن الإسلام الذي جاء به رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وعلى اله وسلم وقدمه ذلك التقدم الملحوظ حمل بين طياته قوانين عدة مهمة عملت على نشره في شتى أرجاء العالم الأكبر.

فمن أشهر هذه القوانين المهمة التي كان لها الدور الأكبر والطائل في تقدم المسلمين في مختلف الميادين هو قانون: اللين واللاعنف والتسامح الذي أكدت عليه الآيات المباركة فضلاً عن الأحاديث الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

ففي القرآن الكريم هناك أكثر من آية تدعو إلى اللين والسلم ونبذ العنف والبطش، فقد أشار المجدد الثاني الإمام السيد محمد الشيرازي إلى هذه الآيات في كتابه اللاعنف في الإسلام، وهذه الآيات بطبيعة الحال تحث الإنسان على إجتراف هذه الطريق الشائكة، (ولا نزال نرى في القرآن الحكيم خير دعوة علمية وعملية إلى اللاعنف والسلم) كما هي وجهة نظره (قدس سره).

وهنا أسجل بعضاً من هذه الآيات ليتدبرها القارئ:

يقول سبحانه وتعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ). (4)

ويقول: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا). (5)

ويقول: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ). (6)

ويقول: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ). (7)

ويقول: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ). (8)

ويقول: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ). (9)

ويقول: (وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) (10).. إلى غيرها وغيرها من آيات الذكر
الحكيم.

التسامح في السنة النبوية:

أما التسامح من وجهة نظر السنة النبوية فإنه يتشارك مع ما جاءت وحملته هذه اللفظة لغوياً فإن
معنى التسامح هو التساهل والمساهلة في كل جوانب الحياة لذلك جاء قول الرسول الأكرم محمد صلى
الله عليه وعلى اله وسلم: (رحم الله امرئ سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى).

إن سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وعلى اله وسلم وأهل بيته عليهم كانوا أبرز تجلٍّ ومصداق
لسلوك منهجية السلام والتسامح في الأمة؛ فالرسول الأكرم صلى الله عليه وعلى اله وسلم قائد الحركة
السلمية اللاعنافية الأولى في تاريخ العالم.

وهو صلى الله عليه وعلى اله وسلم حامل راية السلم والسلام لأنه يحمل للبشرية النور والهداية
والخير والرشاد والرحمة والرأفة فيقول صلى الله عليه وعلى اله وسلم: (إنما أنا رحمة مهداة) (11)،
ويتحدث القرآن الكريم عن رسالته فيقول: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) 12 ، فإن الرحمة والسلم
والسلام جاء بها الإسلام للناس كافة.

وكثرة لفظ وتكرار السلام على هذا النحو مع أحاطته بالجو الديني النفسي من شأنه أن يوقظ الحواس
جميعها ويوجه الأفكار والأنظار إلى المبدأ السلمي العظيم. (13)

وقد أهتم علمائنا في تدوين كل ما يتعلق في ذلك فقد ألف حول ذلك الإمام الشيرازي (قدس سره) كتاباً
عن تاريخ الرسول الأعظم صلى الله عليه وعلى اله وسلم، وهو تحت عنوان (ولأول مرة في تاريخ
العالم)؛ لأنه لأول مرة في التاريخ، وبعد فترة من الرسل ظهرت هذه الحركة السلمية الشاملة، والإلهية
المباركة، بقيادة الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى اله وسلم، وبهذا الشكل الذي
لا يزال يتفاعل في النفوس، ويترك أثره الطيب في العالم حتى اليوم). (15)

ويتبنى هذه الرؤية أيضاً الباحث (خالص جلبي) إذ يشير إلى (أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه
وعلى اله وسلم كان صاحب أعظم ثورة لاعنفية، في تاريخ الجنس البشري، نجح فيها نجاحاً كاملاً،

وأقام النظام السياسي، بدون انقلاب عسكري، وجيوش وأسلحة، وحروب وغزوات، وبدون سفك دماء). (16)

فهذا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول في أمر الخلافة: (لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري والله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلاَّ عليَّ خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفة وزبرجة). (17)

كما أن علياً عليه السلام هو الذي هتف بأمرٍ من الرسول صلى الله عليه وعلى اله وسلم -عندما فتح المسلمون مكة المكرمة- بشعار: (اليوم يوم المرحمة اليوم تحمى الحرمه..) بعد أن ردد سعد بن عبادة شعاره الجاهلي: (اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمه)!... وللقارئ أن يتأمل الفرق الكبير والشاسع بين الشعارين!! ليطمئن إلى أن السلم واللاعنف خيار استراتيجي في الإسلام، (ولذا نرى أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام والمصلحين كانوا يجنحون للسلم لا قبل قدرتهم بل حتى بعد قدرتهم). (18)

المعنى الشامل للتسامح:

إن المفهوم العام للتسامح لا يعني بالضرورة أن يرتبط بالجانب الاجتماعي على حساب جوانب الحياة الأخرى فكثيراً ما تستخدم هذه الكلمة في المسائل الاجتماعية حتى أنها توحى بأنها من مفرداتها أو من مصطلحاتها، ألا أنه من المصطلحات ذات المعنى العام والشمولي، إذ لا يقتصر على الجانب الاجتماعي فحسب إنما يتعداه إلى الجانب والاقتصادي وحتى السياسي، وله علاقة عامه وشمولية في كل جوانب العلم والمعرفة وله دور في مختلف أبعاد الحياة.

موقف الأديان من التسامح الديني

أن الأديان بحكم إنتمائها إلى السماء، فإنها لا تأمر إلا بالخير والحق والصلاح ولا تدعو إلا بالبرِّ والحب والرحمة والإحسان، ولا توصي إلا بالأمن والسلم والسلام، وما كانت يوماً في حد ذاتها عائقاً أمام التبادل والتلاقح والتثاقف ولا أمام التعايش والتعارف والحوار، وإنما العائق يكمن في الذين يتوهمون أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة ويستغلون الأديان في أقدار الناس ومصائرهم، تلك المهمة التي أبى الله تعالى أن يمنحها لأنبيائه الأخيار.

والمهم أيضاً، أن الإشكال ليس في الأديان ذاتها وإنما هو كامن في عُقم إفهام بعض القائمين عليها ولا زالت المفارقات بين المبادئ والممارسات الواقعة هنا وهناك لا تُحصى وهذا ما سآبينه الآن.

1- التسامح في الإسلام:

إن التسامح وفق المنظور الإسلامي، فضيلة أخلاقية، وضرورة مجتمعية، وسبيل لضبط الاختلافات وإدارتها، والإسلام دين عالمي يتجه برسالاته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وتُرسي دعائم السلام في الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم.

فالجميع ينحدرون من (نفس واحدة)، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. (19)

كما أن الإسلام من جهته يعترف بوجود الغير المخالف فرداً كان أو جماعة ويعترف بشرعية ما لهذا الغير من وجهة نظر ذاتية في الاعتقاد والتصور والممارسة تخالف ما يرتئيه شكلاً ومضموناً، ويكفي أن نعلم أن القرآن الكريم قد سمى الشُّرك ديناً على الرغم من وضوح بطلانه، لا لشيء إلا لأنه في وجدان معتنقيه دين. (20)

والواقع أن المرء إذا نظر إلى تلك المبادئ المتعلقة بموضوع حرية التدين التي أقرها القرآن بموضوعية، لا يسعه إلا الاعتراف بأنها فعلاً مبادئ التسامح الديني في أعرق معانيه وأروع صورهِ وأبعد قيمهِ.

فعالما اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزلت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة.

والسؤال الذي يطرح في هذا السياق هو:

ما هي الجذور المعرفية والفكرية لمفهوم التسامح في الإسلام؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي علينا أن نعرف الأمور التالية:

أ- يعترف الإسلام في كل أنظمتِهِ وتشريعاتِهِ، بالحقوق الشخصية لكل فرد من أفراد المجتمع، ولا يجيز أي ممارسة تفضي إلى انتهاك هذه الحقوق والخصوصيات، ولا ريب أنه يترتب -على ذلك- على الصعيد الواقعي الكثير من نقاط الاختلاف بين البشر، ولكن هذا الاختلاف لا يؤسس للقطيعة والجفاء والتباعد، وإنما يؤسس للمدارة والتسامح مع المختلف.

ب- إن المنظومة الأخلاقية والسلوكية، التي شرعها الدين الإسلامي من قبيل الرفق والإيثار والعفو والإحسان والمداراة والقول الحسن والألفة والأمانة، وحث المؤمنين على الالتزام بها وجعلها سمة شخصيتهم الخاصة والعامة، كلها تقتضي الالتزام بمضمون مبدأ التسامح.

ومن خلال هذه المنظومة القيمية والأخلاقية، نرى أن المطلوب من الإنسان المسلم دائماً وفي كل أحواله وأوضاعه، أن يلتزم بمقتضيات التسامح ومتطلبات العدالة.

فالتسامح كسلوك وموقف ليس منة أو دليل ضعف وميوعة في الالتزام بالقيم، بل هي من مقتضيات القيم ومتطلبات الالتزام بالمبادئ، فالغلظة والشدة والعنف في العلاقات الاجتماعية والإنسانية، هي المناقضة للقيم، وهي المضادة لطبيعة متطلبات الالتزام وهي دليل ضعف لا قوة.

فالأصل في العلاقات الاجتماعية والإنسانية، أن تكون علاقات قائمة على المحبة والمودة والتآلف، حتى ولو تباينت الأفكار والمواقف، بل إن هذا التباين هو الذي يؤكد ضرورة الالتزام بهذه القيم والمبادئ.

فوجدتنا الاجتماعية والوطنية اليوم، بحاجة إلى غرس قيم ومتطلبات التسامح في فضائنا الاجتماعي والثقافي والسياسي.

2-التسامح في الاديان الاخرى

والصحيح أن الإسلام لم يكن وحده في إشتماله على مبادئ التسامح، فالمسيحية التي تقول أناجيلها: لقد قيل لكم من قبل أن السنّ بالسنّ والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشرّ بالشرّ بل من ضرب خدك الأيمن فحوّل إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه أذارك وإن سخرّك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين.(21)

-من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان.(22)

-عاشروا الناس معاشرة إن عثتم حنوا إليكم وإن مّم بكوا عليكم.(23)

هذه نصوص مأخوذة من الإنجيل (الكتاب المقدس) وهي بدورها تتضمن مبادئ التسامح في أجلى صورته، بل إنه تسامح يبدوا أحياناً فوق الطاقة، وهذا دليل ثانٍ على تشارك الأديان السماوية في هذا الجانب الفضيل من جوانب الحياة ولا غرابة في ذلك لان الربّ واحد ومشرّع القيم السمحة واحد، على الرغم من اختلاف الأنبياء والأديان.

وكذلك فإن اليهودية تدعو إلى التسامح فإذا نظرنا إلى مثل هذه الوصايا..

- كل ما تكره أن يفعله غيرك بك فإياك أن تفعله أنت بغيرك. (24)

- اغتسلوا وتطهروا وأزيلوا شرّ أفكاركم (...). وكفّوا عن الإساءة* تعلّموا الإحسان والتمسوا
الإينصاف 25.

وهكذا.... بات واضحاً أن التسامح الديني مطلب إنساني نبيل دعت إليه الأديان كافة، وكيف لا تدعو إليه وقد أرادته الحكمة الإلهية واقتضته الفطرة الإنسانية واستوجبتة النشأة الاجتماعية وفرضته المجتمعات المدنية وحتّمته وما تحتاج إليه من قيم حضارية ومدنية نبيلة.

روح التسامح:

في الإسلام تعد الكلمة أول وآخر شيء في الدعوة، ذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى لما كان الهدف من إيصال الحق إلى القلوب ليستقر فيها ويحرك الإنسان باتجاه الفضيلة، فإن من الضروري أن تكون الكلمة الوسيلة الأساس في تحقيق هذا الهدف، بسبب ما فيها من رؤية ولين وقدرة على الإقناع، وبسبب ما تحقّقه من ضمانة الثبات والتمكّن لأفكارها في القلوب والسلوك.

وهذا السياق هو الذي تؤكد الآيات الكريمة بوصفه الميزة التي اختصت بها الدعوة الإسلامية، التي أرادت السمو بالإنسان إلى ملكوت الله تعالى والأنس بجواره.

فيقول تبارك وتعالى: (ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن). (26)

والموعظة الحسنة على حد تعبير بعض المفسرين هي: التي تدخل القلب برفق، وتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة ويأتي بخير من الزجر والتأنيب.

والدعوة إلى سلوك الطريق الأحسن في مقام الجدل والصراع الفكري، هي دعوة قرآنية تخاطب كل مجال من مجالات الصراع في الحياة وتتصل بكل علاقة من علاقات الإنسان بأخيه الإنسان في مجالات الصرع.

إنها دعوة الله إلى الإنسان في قوله تعالى: (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)(27) ، وقوله:(وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا).

هذه الدعوة الصافية التي توحى للإنسان في كل زمان ومكان، أن مهمته في الحياة هي أن يثير في الإنسانية عوامل الخير ويلتقي بها في عملية إستثارة وإستثمار، بدلا من عوامل الشر التي تهدم ولا تبني وتضر ولا تنفع وتدفعه في الوقت نفسه إلى أن يجعل اختيار الأحسن في كل شيء وفي كل جانب من حياته شعاره الذي يرفعه في كل مكان وزمان.

وإن القوة مهما كانت درجتها لن تنسجم مع طبيعة الرسالة الإسلامية، مادامت القوة تعني محاصرة العقل وفرض الفكرة عليه تحت تأثير الألم أو الخوف لذلك فإن الباري عز وجل يحذر رسوله أن يمارس التبليغ بروح السيطرة والاستعلاء، (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر).(28)

ولما كانت الأخلاق تتجلى رقة وحنانا واستيعابا للآخرين، فإننا نلاحظ أن الله تعالى يذكر نبيه بالقاعدة الذهبية التي جعلته داعيةً ناجحاً ومقبولاً، ويؤكد له أن حيازته على هذه السجية إنما هي بفضل الله وتوفيقه: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) آل عمران 159، وفي هذا الجو المفعم بالأخلاق وطيب القلب والعفو، نحدد علاقتنا بالأشياء والأشخاص، لتكون بأجمعها مشدودة إلى هذه القيم النبيلة، وسائدة في هذا الاتجاه.

فالأصل في العلاقة بين بني الإنسان بصرف النظر عن إتجاهاتهم الأيدولوجية والفكرية، هو الرحمة والإحسان والبر والقسط وتجنب الإيذاء.

التسامح والتعددية

لقد جاء في المادة رقم "1" من القانون العام لليونسكو الفقرة "3": إن التسامح مسؤولية تشكل عماد حقوق الإنسان والتعددية (بما في ذلك التعددية الثقافية) والديمقراطية وحكم القانون وهو ينطوي على نبذ الدوغماتية²⁹، والاستبدادية ويثبت المعايير التي تنص عليها الصكوك الدولية الخاصة بحقوق الإنسان.(30)

لذا يكتسب التسامح أهمية خاصة إذا كان للناس ذوي الفتاعات الدينية والإيديولوجية والسياسية المختلفة يرغبون في أن يعيشوا معاً في مجتمع ديمقراطي تعددي.

إن العصر الحديث يشهد ولاسيما في المنطقة العربية بروز مجتمعات متعدّدة الثقافات إلى مدى يتزايد باستمرار، يتحقّق فيه خلال فترة طويلة تنوّع في الفوارق الدينية والمذهبية، فإن ذلك يجعل فضيلة التسامح ضرورية إلى أقصى الحدود.

ومن هنا لا يجوز أن يُنظر إلى اختلاف الجماعات البشرية في أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب، فقد خلق الله الناس مختلفين: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ (31)، كما يقول القرآن الكريم.

ولكن هذا الإختلاف بين الناس في أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعاش وإثراء للحياة والنهوض بها. ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (32)، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون في جميع المجالات.

التسامح والحوار:

إن الحوار في معناه الصحيح لا يقوم ولا يؤدي إلى الهدف المنشود إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين أطراف الحوار، واحترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر وبهذا المعنى فإن الحوار يعني التسامح واحترام حرية الآخرين، واحترام الرأي الآخر لا يعني بالضرورة القبول به.

وليس الهدف من الحوار مجرد فكّ الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، وإنما هدفه الأكبر هو إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير، وذلك بالبحث عن القواسم المشتركة التي تشكل الأساس المتين للتعاون البناء بين الأمم والشعوب. والحوار بهذا المعنى يُعد قيمة حضارية ينبغي الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات.

والوعي بذلك كله أمر ضروري يجب أن نعلمه للأجيال الجديدة، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين ولا جدال في أن الحوار قد أصبح في عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة.

وإذا كانت بعض الدول في القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجتمع الدولي أن يصحح الأوضاع، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضاري في التعامل وهو الحوار، فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان -برغم الاختلافات فيما بينها- كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان. (33)

وذلك لما للأديان من تأثير عميق في النفوس ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. (34)

قيم التسامح

يتضح مما سبق إن التسامح الديني أو التسامح الشامل له قيم على أساسها يبني وفي خضمها يحقق غايته وهذه القيم هي:

1 - قيمة التسامح في كونه ضرورة وجودية:

إن ما يجب تسليط الضوء عليه أن أهمية التسامح الديني تتمثل في كونه ذا بُعد وجودي، أي أنه ضروري ضرورة الوجود نفسه.

ولتوضيح ذلك يمكن الالمام إلى أن سنة الوجود قد اقتضت أن يكون وجود الناس على الأرض في شكل تجمعات بشرية، وهي وإن اتفقت في ما يجمع بينها من وحدة الأصل والحاجة إلى التجمع والحرص على البقاء والرغبة في التمكن من مقومات الحياة والسعي في إقامة التمدن والعمران والتوق إلى الارتقاء والتقدم فإنها قد تباينت في ما تتفرد به كل مجموعة من خصوصية عرقية ودينية وبيئية وثقافية.

وقد صرح القرآن بهذه الحقيقة الوجودية فقال: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا). (35)

وقد ألمع القرآن إلى ضرورة هذا الاختلاف النمطي، وإلى حتمية وجوده حتى يتمكن كل فرد وكل مجتمع من العيش حسب ما لديه من إرادة وحرية واختيار وبالطريقة التي يهواها ويرتضيها.

وهكذا نلاحظ، أن الغاية من اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل وتنوعهم إلى ثقافات ومدنيات إنما هو التعارف لا التناكر، والتعايش لا الاقتتال، والتعاون لا التناحر، والتكامل لا التعارض، وبات واضحاً أن أهمية التسامح الديني تتمثل في كونه ضرورياً لضرورة الوجود نفسه.

2- قيمة التسامح الديني تتمثل في كونه يقتضي الاحترام المتبادل:

أن قيمة التسامح الديني تتمثل في كونه يُقرّ الاختلاف ويقبل التنوع ويعترف بالتغاير ويحترم ما يميز الأفراد من معطيات نفسية ووجدانية وعقلية، ويقدر ما يختص به كل شعب من مكونات ثقافية امتزج فيها قديم ماضيه بجديد حاضره ورؤية مستقبله، هي سبب وجوده وسرّ بقائه وعنوان هويته ومبعث اعتزازه.

3- قيمة التسامح الديني تتمثل في كونه يقتضي المساواة بالحقوق:

من الواضح أن قيمة التسامح الديني تتمثل في كونه يقتضي التسليم المطلق - إعتقاداً وسلوكاً وممارسة - بأنه إذا كان لهؤلاء وجود فأولئك وجود، وإذا كان لهؤلاء دين له حرمة فأولئك دين له الحُرمة نفسها، وإذا كان لهؤلاء خصوصية ثقافية لا ترضى الانتهاك فأولئك خصوصية ثقافية لا تقبل المسّ أبداً.

4- قيمة التسامح الديني تتمثل في كونه داعماً لإقامة مجتمع مدني:

من الواضح أن التسامح الديني يُعدّ أرضية أساسية لبناء المجتمع المدني وإرساء قواعده، فالتعددية والديموقراطية وحرية المعتقد وقبول الاختلاف في الرأي والفكر وثقافة الإنسان وتقدير المواثيق الوطنية واحترام سيادة القانون، خيارات استراتيجية وقيم إنسانية ناجزة لا تقبل التراجع ولا التفريط ولا المساومة، فالتسامح عامل فاعل في بناء المجتمع المدني، ومشجّع على تفعيل قواعده.

معطيات التسامح الاجتماعي والسياسي

قبل أن نبدأ بالحديث عن الأبعاد الاجتماعية لثقافة التسامح، لا بد لنا أن نوظف عقولنا وأفكارنا وعلومنا وبقلوب صافية ونقية، لفهم المعاني الحقيقية لهذه الثقافة وما يمكن أن تحققه في مجتمعاتنا العربية من خيرٍ وحبٍ وسلامٍ ورفاهيةٍ وتقدم.

فعلى الصعيد الاجتماعي تتجلى هذه الخصيصة الحضارية في محيطنا الاجتماعي في ماذا سنجنّي من التسامح وماذا سيمنحنا من مكتسبات ترتقي بنا إلى مصاف الحضرة؟

فالتسامح الاجتماعي يحرص إلى تعزيز الأمور التي سوف أسوقها في بحثي هذا وهي:

1- تعزيز الحرية:

إن التسامح يفتح آفاقاً جديدة في فهم حقوق الآخرين وواجباتهم تجاه غيرهم وعدم فرض قيود على الآخرين ما يتيح تحول الأفراد والمجموعات لمزيد من التمدن ويوصل من قيمة الحرية.

إن الحد من سلطة السلطة والقوة لدى الفرد والتفكير بطريقة متعايشة ومحبة للآخرين يدعو لمزيد من تشذيب سلوكياتنا وتقنينها نحو الحقوق والواجبات التي تؤطر حياتنا.

فالسلطة المتسامحة حينما تترك للشعب أن يكون مسؤولاً لما سيختاره لنفسه، فإنها في واقع الأمر ستساهم في دفع الأفراد للحد من سلطتهم تجاه غيرهم وسنجد أنفسنا في أحضان دولة مدنية يحكمها القانون ويسودها التبادل المنفعي مما يؤدي إلى تعزيز العدالة بشكل كبير.

بل إن التسامح سيساهم بجدية في تكريس الأطر الديمقراطية، ذلك أن جزءاً كبيراً من مفهوم الديمقراطية يرتبط بالمشاعر الشخصية فاحترام الأغلبية لرأي الأقلية يتطلب روحية معنوية خاصة تتقبل احترام الأقلية وترتضي عن طيب خاطر ممارسة الأقلية حقوقها المشروعة وشعائرها.

2- تحقيق العدالة:

إن كل شخص لديه الحق في التسامح المساوي لحقوق الآخرين، فلا نستطيع أن نقول أن التسامح يقتصر على آرائنا وأعمالنا وسلوكياتنا ولا يحق لآراء وأعمال الآخرين التمتع به.

إن ذلك سيكرس مفهوماً تكاملياً جديداً للعدالة في المجتمع ويضيف أبعاداً أكثر أهمية من خلال المناصفة وتوزيع الحقوق على الجميع بشكل عادل ومساوٍ.

2- التسامح الاجتماعي مجال خصب لصناعة الأفكار:

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (الرفق رأس الحكمة).

أن التسامح يدعو لفهم الأفكار واستيعابها ويعمل على استحواذ انتباهنا لخلفيات كافة الأفكار المحيطة بنا وخاصة أفكار الآخرين المنافسين أو الأنداد، وإن كانت وجهة نظرنا تبدو غريبة وكريهة وغير منطقية.

ففي الوقت الذي تطالب وبإلحاح الاهتمام الجدي بما تقوله وتطرحه من أفكار ومعتقدات فأنت مطالب أيضاً بالاستماع والانتباه لما يقوله الآخرون.

وفي ذلك يقول المفكر الفرنسي (فولتير): (أنا لا أوّمن بكل ما تريد أن تقول ولكنني سأدافع حتى الموت في حقك أن تقول ما تريد).

إن التبادل الأخلاقي مع الآخرين وفكرهم ينطوي على صناعة وتأصيل الوعي المتزايد ويشكل خلفية ثقافية ناهضة تقبل على قراءة وتفحص ما يتبناه الآخر المختلف كما يتفحص الآخرون فكرنا، مما يثري الساحة ويحدث موجة من التلاقح الفكري والحيوي والثقافي.

والتسامح كذلك يؤسس قاعدة تغيير أفكار الآخرين على أسس عقلانية وهو بحد ذاته جهد ثقافي وفكري جبار مما يلزم إحداث تجديد فكري وثقافي في الأمة يتناسب وعقلانية قادرة على مجازاة النهوض الفكري المنتشر، خصوصاً وما يحدث اليوم على الساحة العالمية من نظرتها تجاه الإسلام هذه النظرة التي البسها بعض المتطرفين ليظهروا للعالم أن الإسلام لا يحمل مثل هذه الخصيصة الإنسانية، فعن طريق التسامح يكون العمل على صياغة آليات عمل مناسبة لصهر الجميع في بوتقة المجتمع والدولة وعدم إتاحة الفرصة لتغلغل مشاعر الفرقة والشتات والضياع.

4- نقد الذات:

يفعل التسامح فعل السحر في ممارسة النقد الذاتي، إذ أنه يلح على رواده توجيه التفكير نحو الحقيقة والوصول إلى جوهر الفكرة وأصالتها، لا التفكير بنزعات النفس والهوى الملازم للفكرة، ولنا أن نتصور كيف يمكن أن يحافظ المتسامحون على الروح النقدية من كافة المعضلات والمشاكل والأحداث التي تحيق بهم إذا امتلكوا روحاً شفافاً تبحث عن الحقيقة وتؤثر من ذاتها لأجل نصره الحق.

ولنا في ذلك ضرب في الأمثال متمثل في أنمتنا عليهم السلام وما حدث مع الإمام الباقر عليه السلام هو خير مصداق لكلامنا، فيذكر أن رجلاً مرّ على الإمام الباقر عليه السلام فقال له: السلام عليك يا بقرة!

فقال الإمام عليه السلام: أنا الباقر .

فقال له الرجل: بين الطباخه!

فقال له الإمام عليه السلام: هو دأبها.

فقال الرجل: بين بذينة اللسان!

فقال الإمام عليه السلام: إن كانت كذلك غفر الله لها وإن كنت كذلك غفر الله لك.

فقال الرجل الله يعلم أين يضع سره.

وهذا يوضح ما لممارسة نقد الذات والأفكار والأطروحات من تشكيله لقاعدة جوهرية في إدراك رفيع لتلك الأفكار والمضامين بعيداً عن التشنج والتعالي.

ولو أمعن رواد الحركة الإسلامية في التسامح وابتعدوا عن عقلية الاحتكار والتفرد والوصاية على عقول وتفكير الآخرين لوجدوا أنفسهم في حضن النهضة الثقافية حيث تزدهر تطلعاتهم وتنهض لديهم أفكار مبدعة، لكن النظرة الفوقية دائماً لا تتيح التمتع بمميزات وآراء ذلك الأدنى خاصة إذا اصطبغت أفكار وآراء ذلك الأدنى بلون الكفر.

توصيات عامة للوصول إلى التسامح:

لأجل الوصول إلى التسامح الشامل في مجالات الحياة السياسية

أو الاجتماعية أو حتى العقدية منها (الدينية) لا بدّ علينا من أن نهتمّ بالأمر الآتية:

1- العمل على تأصيل مبدأ التسامح، لا التأصيل النابع من ناحية المفهوم وأولوية السبق المصطلحي بين الشرق والغرب، لأننا لسنا في صدد إثبات أقدمية التسامح في الإسلام، إنما من أجل إبعاد الحساسية التي أباها بعض مفكري عصر النهضة من غربة الفكرة وإستيرادها.

ولأجل ذلك نحن مدعون إلى تجسيد ثمة معطيات رئيسية في التعامل والتكامل مع الآخرين عن طريق:

أ- الإصغاء للآخرين أي كانوا بدافع التعلم منهم لا احترامهم فحسب، خاصة خصومنا وأندادنا ونعني بالإصغاء ملاحظة قيمهم وفكرهم وطرق تفكيرهم والأسس الفكرية التي انطلقوا منها في تدعيم رأيهم وفكرهم ومنطقهم.

ب- المطالبة بتوفير الأجواء المناسبة للتسامح وأهمها جعل القيمة ذات مضمون حياتي في مختلف مشارب تعاملاتنا، وأولها تأصيلها في الأسرة الصغيرة وتشذيب سلوكياتنا بمزيد من التسامح والاتساع في ذلك ليشمل كل أبعاد الحياة.

ج-الكف عن ممارسة السلطة أو استخدام القوة في التدخل بآراء الآخرين وأعمالهم ونشاطهم وأساليب تحركهم وطرق تفكيرهم، نعم بإمكاننا التنبيه على المزالق التي يقعون بها أو كشف من يخل بالالتزامات الأخلاقية للتسامح أو يتجاوز قواعدها الأساسية بطريقة مشينة، ولكن لا يحق لنا أن نتدخل بآرائهم وأعمالهم وإن كنا لا نوافق عليها عقيدياً أو فكرياً أو أخلاقياً.

2- التأكيد على حق الاختلاف بين البشر فالإختلاف آية بينة، وإن كان لا يلغى الإنتلاف، فالتسامح لم يرد في الشريعة الإسلامية إلا أنه يشير إلى إحدى خصائص المجتمع المسلم، كما جاءت الشريعة بما يقاربه أو يدل على معناه، فقد دعا القرآن الكريم إلى التقوى والتشاور والتآزر والتواصي والتراحم والتعارف، وكلها من صفات التسامح.

3- المطالبة بتكريس التسامح في الحياة السياسية ففي ظل التعدد في التركيبة المجتمعية الموجودة في مجتمعاتنا ، فإنه لا بد من تقبل قيام أي أقلية أو طائفة أو تنظيم سياسي أو ديني تشكيل حزب سياسي يمثله والقيام بالترويج لأفكاره وإن كان مناهضاً لأطروحاتنا، فليس لنا الحق بادعاء إمتلاك الحقيقة السياسية ومصادرة رأي الآخرين.

4- نهوض الثقافة المدنية القائمة على فلسفة تأصيل طرائق التعددية وبناء مفهوم جديد للمواطنة يقوم على إحترام الحريات والحقوق الممنوحة للفرد والتداول السلمي للسلطة ورفض أشكال الاستبداد والدكتاتورية كافة في مختلف مناحي الحياة وهذا يتطلب سعياً حثيثاً نحو تغيير كل مؤسسات الدولة وطرقها عن طريق القضاء على الفساد الموجود في مؤسسات الدولة المختلفة، كما ويسعى إلى تأصيل مبادئ حقوق الإنسان، والعمل على إزاحة معالم الدولة العسكرية و(عسكرة الشعوب) والمركزية المطلقة في الحكم.

خاتمة:

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أي مدى يعتبر التسامح الإيجابي -بوصفه تسامحاً شاملاً أو تسامحاً دينياً- من العناصر الأساسية في تعاليم الإسلام، وبالتالي من الأهداف التي ترمي إليها التربية الإسلامية.

ومن هنا فإن التزام المسلمين بذلك وحمایتهم لحقوق الانسان والجماعات المتنوعة وأتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون في المجتمعات الإسلامية أمر يدخل في إطار التزاماتهم الدينية التي تقضي بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنسانية العامة للجميع.

* مركز الامام الشيرازي للدراسات والبحوث

www.shrsc.com

الهوامش:

- 1- لسان العرب مادة (سَمَح).
- 2- موسوعة وكبيديا الحرة : تعريف التسامح.
- 3- مأخوذة من مقالة لمحمد منقذ الهاشمي من موقع: <http://maaber>.
- 4- سورة النحل / 125.
- 5- سورة الفرقان / 63.
- 6- سورة العنكبوت / 46.
- 7- سورة الأعراف / 199.
- 8 - سورة الأنعام / 108.
- 9- سورة آل عمران / 159.
- 10- سورة النور / 22.
- 11- كشف الغمة: ج1 ص8.
- 12 - سورة الأنبياء: 107.
- 13- فقه السلم والسلام: للسيد الإمام الشيرازي (قدس سره): ص26.
- 14 - ولأول مرة في تاريخ العالم : للسيد الشيرازي (قدس سره)، ص30.
- 15- خالص جلبي: سيكولوجية العنف وإستراتيجية الحل السلمي، ص15.

16- الإمام علي بن أبي طالب (ع): نهج البلاغة ، ص 95. المقطع المقتبس، هو من خطبته
لَمَّا عَزَمُوا عَلَى بَيْعَةِ عَثْمَانَ.

17- السيد محمد الشيرازي(قدس سره): السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص201.

18-السورة النساء: 1.

19 - أنظر سورة الكافرون على سبيل المثال.

20- الحايك، ميشال. 1961، المسيح في الإسلام. ط4. بيروت. دار النهار. ص 159.

21- مقالة للاستاذ عقيل يوسف عيدان، باحث في الفلسفة الإسلامية والفكر العربي، من الكويت.

ayemh@yahoo.com

22- نفس المصدر.

23- الكتاب المقدس للمدرسة والعائلة في العهدين القديم والجديد - (العهد القديم). بعناية: الأب
باسيليوس كناكري. ص 135.

24- المصدر السابق، ص 139.

25- سورة النحل/الآية 125.

26- سورة فصلت/ الآية 34.

27- سورة الغاشية/ الآية 22.

28- سورة آل عمران/ الآية 159.

29- الدوغماتية- الدوغماتية تعريب لكلمة Dogmatism، وهي تعني الوثوقية أو التوكيدية، وهي
تعني أيضاً الاعتقاد الجازم واليقين المطلق دون استناد إلى براهين يقينية، وإنكار الآخر ورفضه
باعتباره على باطل مطلق.

و الدوغماتية ليست مذهباً فلسفياً أو دينياً، وإنما هي سمة وطريقة تفكير تتسم بها أي فرقة أو مذهب
أو فلسفة تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة بشكل شامل، ولا تُقر بأنها قد تحمل شيئاً من الخطأ أو

النقص، وتقطع بأن ما تحوزه من معارف ومعتقدات، لا يقبل النقاش ولا التغيير، حتى وإن تغيرت الظروف التاريخية أو السياقات المكانية والاجتماعية.

30- قانون التسامح لليونسكو منشور على هذا الموقع:

www.umn.edu/humanrts/arab/tolerance.html.

31 - سورة هود: 118-119.

32- سورة الحجرات: 13.

33 - (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (كما جاء في الآية الكريمة: (الحجرات: 13)).

34- سورة آل عمران: 64.

35- سورة الحجرات. الآية 13.